

المدينة بين المحافظة على التراث المعماري ومتطلبات التحديث

-مدينة قلعة بني راشد أنموذجا-

The city between preserving the architectural heritage and modernization requirements
The city of Bani Rashid Castle - a model -مجدوب صافي¹¹ رئيس جمعية ما بين الولايات لحماية التراث والمحافظة على التاريخ المحلي للغرب الجزائري

safi74safi@gmail.com، (الجزائر)

تاريخ النشر: 2023/07/11

تاريخ القبول: 2022/11/18

تاريخ الاستلام: 2022/10/25

ملخص:

من المفردات الفترة المعاصرة ان التطور التقني والتكنولوجي الهائل أوجد حاجة ملحة للمحافظة على التراث المعماري القديم في قالب حديث، وإلى البعد الجمالي الذي نفتقده في الانجازات المعمارية والعمرانية المعاصرة نتيجة لكثرة الطلب فأصبحت المراكز العمرانية تفتقد لذاكرتها الحية المبنية على البعد التاريخي لسكانها فكانت هذه المخططات العمرانية أحد أسباب التغريب الحضاري وأحد مظاهر القصور في التعامل مع التراث المادي في مدننا المعاصرة، وعليه وجب العمل على تفعيل المقاربة بين الحاضر والماضي في العمران داخل المدن وإلى الإسراع إلى ترميم وصيانة المباني التي لازالت تحافظ على البعد التراثي والحس الجمالي كمدينة قلعة بني راشد على سبيل المثال لا الحصر. كلمات مفتاحية: قلعة بني راشد، التراث المعماري، التراث المادي، العمران.

Abstract:

One of the paradoxes of the contemporary period is that the tremendous technical and technological development has created an urgent need to preserve the ancient architectural heritage in a modern form, and to the aesthetic dimension that we lack in the contemporary architectural and urban achievements as a result of the abundance of demand. The causes of civilizational alienation and one of the manifestations of inadequacy

in dealing with the tangible heritage in our contemporary cities, and therefore it is necessary to work on activating the approach between the present and the past in urbanization within cities and to expedite the restoration and maintenance of buildings that still maintain the heritage dimension and aesthetic sense, such as the city of Bani Rashid Castle, for example. inventory.

Keywords: Bani Rashid Fort; Architectural Heritage; Physical Heritage; Urbanization.

1. مقدمة:

عرفت بلاد المغرب الأوسط ظهور العديد من المدن التي أسستها القبائل وتفرعاتها، والتي كانت لها إسهامات في مسار التاريخ الوسيط أو الحديث أو المعاصر، حيث لعب العامل الطبيعي والبيئي أثرا كبيرا في استقرار تلك القبائل في هاته المدن بعد إنشائها لأنها توفرت على أساسيات الحياة، وهو ما توفرت عليه مدينة "قلعة بني راشد" أو مدينة القلعة حاليا، التي مثلت إحدى المدن الثلاث التي اشتهرت بها منطقة بني راشد خلال الفترة الحديثة (الفترة العثمانية)، حيث تعتبر من بين المدن الداخلية التي وصفتها المصادر التاريخية والجغرافية بكثير من الخصوصية والتميز بين المدن في تلك الفترة، حيث توفرت على شروط ابن خلدون (808هـ/1406م) في نشأة المدن، وعلى شروط ابن الربيع (272هـ/885م) في العمران وهي ستة شروط أساسية: سعة المياه المستعذبة، وإمكانية الميرة المستمدة، واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المراعي والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء، وأن يحيط بها سور يعين أهلها¹. وإلى ما أورده الماوردي في شأن المدن في قوله: أولا سعة المياه والثاني إمكان الميرة المستمدة والثالث اعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة والرابع قربه تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب والخامس تحصين منازلها من الأعداء والزعار والسادس أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده (الماوردي:، 1981، الصفحات 162-163).

القلعة عرفت قديما منذ أواخر القرن الثاني الهجري (بن معمر، 2017، صفحة 177) بعدة أسماء عبر مختلف الفترات الزمنية وتعاقب الإمارات والدول عليها أو ما ذكره الرحالة الجغرافيون والمؤرخون في متونهم ومصنفاتهم وهي: جبل ينجان (ابن الصغير، 1985، صفحة 48)، جبل بني راشد (ابن سعيد المغربي، 1970، صفحة 145)، قلعة هواره (مراكشي، 1985، صفحة 178)، جبل هواره (ابن خلدون، 2011، صفحة 187)، بن زعزوع (Journal Asiatique RECUEIL DE. MÉMOIRES D'EXTRAITS ET DE NOTICES, Huitième Série Txvi, 1890, p. 248)، جبل فرحان (الإدريسي، 2002، صفحة 251)، مدينة الجبل (اليقوبي، د ت، صفحة 195)، جبل توجان (ابن حوقل، 1996، صفحة 89)، عين الصفاف

(ابن حوقل، 1996، صفحة 89)، أهل الجبل (الراشدي، 2013، صفحة 59)، جبل راشد (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 203)، القلعة (البوعبدلي، 2003، صفحة 595)، قلعة بني راشد (الراشدي، 2013، صفحة 456)، قلعة القلاع (مؤلف مجهول، 2010، صفحة 92)، قلعة دلول (الحميري، 1974، صفحة 558)، الطاو (كربخال، 1984، صفحة 324)، الرابطة (TROUSSEL, 1927, p. 6). فيلبورك' تاسقدالت (البكري، 2003، صفحة 252)، التي تعني "القلعة، المدينة المغلقة، الأرض المحمية الممنوعة".

بناء على ما ذكر سابقا فمدينة القلعة كانت من بين الحواضر الموجودة منذ عقود عديدة مما جعلها تكتسب العديد من الخصائص الاجتماعية والتاريخية والعمرانية تميزها عن باقي الحواضر المجاورة ولذلك أمست مركزا من المراكز العمرانية التاريخية التي لازالت تحافظ على البعد التراثي والحس الجمالي في ولاية غليزان التي تحتاج إلى تأهيل والاهتمام خاصة بعد تصنيفها كقطاع محفوظ سنة 2020، فما هي إمكانيات مدينة قلعة بني راشد لأجل الاستثمار فيها اقتصاديا؟ وماهي تحديات الموجودة على أرض الواقع التي تحول دون ذلك؟ وهل يمكن أن تكون القلعة وجهة للسياحة الداخلية؟

1. واقع العمراني لمدينة قلعة بني راشد

2-1 عوامل المؤثرة في استغلال مخطط الأراضي POS بمدينة قلعة راشد.

إن الدارس للنسيج الحضري لمدينة قلعة بني راشد والمعاينة الميدانية له يلاحظ أن هناك عدة عوامل قيدت أمراء القلعة في كيفية بنائها ولم تعطهم أي خيارات في التخطيط إنشاء المدينة أو تطويرها وتحكمت فيه وهي:

العامل الطبيعي:

تحيط بمدينة قلعة بني راشد عدة جبال يوجد في جنوب المنطقة جبال قلعة بني راشد التي تنتمي إلى جبال بني شقران التابعة لسلسلة الأطلس التلي، ومن بين الجبال المعروفة جبل بربر 816 م (بلعباس، 2012، صفحة 11)، جبل التركي 483 م، جبل الباب 414 م، جبل عنق 461 م، جبل الراس الوسطاني، جبل رأس القبلي، كودية الهابرة، متاع الهناء، كودية قديدة، جبل القصبة، كودية سيدي عبدالقادر (مدني شريف، 2005، صفحة 16).. ذكرها الجغرافي مرمول كربخال الإسباني الذي طاف هو الآخر من بعده أرجاء بلاد المغرب، ووصف قلعة بني راشد قائلا: "بُنيت على سفح تلّ بين جبلين عالين، تحيط بها أسوار ذات أبراج على هيئة القلاع الحصينة يسكنها تجار وصنّاع مياسير (كربخال، 1984، صفحة 324)، .. وكلها تشكّلت حديثا، كما لعبت الزلازل التي كانت تقع من حين إلى آخر (TROUSSEL, 1927, p. 36)، ولعل أخطرها زلزال سنة 1887 الذي تسبب في خسائر بشرية ومادية وزلزال سنة 1888 وزلزال سنة

1900، وغيرها من الهزات التي حوّلت تربة موقع القلعة إلى تربة غير مستقرة، لا تسمح بتعمير المباني لمدة زمنية طويلة على سطحها (بلعباس، 2012، صفحة 46). كما أن الجيولوجيا التركيبية والبنائية للأرض المنطقة تتكون من الطلي الغربي القديم، (Bulletin de la societe de géographie et d'archeologie، d'oran, 1902, p. 130) التي تعود إلى فترة الميوسين أو الميوسيني (Miocène) المنتمي للزمن الجيولوجي الثالث (بلعباس، 2012، صفحة 12).

العامل الاجتماعي اقتصادي:

بناء على طبيعة مواد الخام المستخدمة في البناء، وتقنيات توظيفها نجد أن سكان مدينة القلعة يميلون إلى عمران ريفي، الذي لا يهتم ببذخ العيش، ورفاهية الحواضر التي كانت موجودة، في ظل غياب دراسة أثرية تظهر المظهر العمراني الذي كان موجودا قبل زلزال 1887م، أو كان موجودا من خلال ما صورته المؤرخون والجغرافيون عن قلعة بني راشد.

العامل الأثري والتاريخي:

إذا تمعنا في أوصاف قلعة بني راشد بداية من ابن الصغير (ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، 1985، صفحة 48) واليعقوبي (اليعقوبي، د ت، صفحة 195)، وابن حوقل (ابن حوقل، 1996، صفحة 89) والبكري (البكري، 2003، صفحة 830)، والإدرسي (الإدرسي، 2002، صفحة 251)، إلى غاية أصبحت قاعدة عسكرية عثمانية محصنة (مؤلف مجهول، 2010، صفحة 92)، نجد أن عمرانها تراجع رويدا رويدا كما وصفها الرحالة البريطاني "الدكتور شو" (DR. SHAW) "بأنها مدينة صغيرة، مبنية على مرتفع شاهق، وما بقي منها اليوم، لا يتجاوز عمره التاريخ المذكور" (Dr. SHAW, 1830, p. 249)، يقصد زلزال سنة 1887م. بذلك يمكن أن نقول أن القلعة قد بنيت وفق طبيعة الموقع من حيث الطبوغرافية و بالوضع التاريخي أي الأحداث التاريخية المصاحبة لإنشاء المدينة، كما يمكن تندرج ضمن المدن الأميرية التي أنشئت لصالح الأسرة الحاكمة أو للأمير حيث أنها اقترنت في البداية باسم ابن مسالة الإباضي شيخ قبيلة (ابن خلدون ع، 2000، الصفحات 124-125) هواره. (البكري أ، د ت، صفحة 195) ثم انتقلت إلى إسحاق أمير من أمراء بني راشد (ابن خلدون ع، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في الأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 6، 1992، صفحة 170).

2. مكونات النسيج العمراني لمدينة قلعة بني راشد:

تتكون الأنسجة العمرانية التراثية الموجودة بمدينة قلعة بني راشد، بتقسيماتها الموجودة منذ زمن بعيد، وهي رأس القلعة، السوخ، دار الشيخ، كركوري والدبة، كأنها مجمّع معماري كبير متكون من وحدات

معمارية صغيرة ولكل منها خصائصه العمرانية. لكن تتقاطع فيما بينها فيما يلي: المسالك الضيقة التي تربط الأحياء ببعضها البعض وجود في كل منها مساجد خاصة (مسجد السوخ، مسجد النبي المهدي، مسجد العتيق، مسجد رأس القلعة، مصلى الأعياد، مسجد الخنفية، المسجد العتيق بالدبة...)، والأضرحة (ضريح سيدي إبراهيم التازي، ضريح سيد صالح، وضريح سيدي الدحمان حيث دفن إسحاق أخ بابا عروج وخير الدين، وضريح سيد عبدالقادر بن يسعد، إضافة إلى المقبرة العثمانية التي بها رفاة شهداء معركة 1518م). وبعبورها المائية (بلعباس، 2012، صفحة 21). الموجودة في كل حي وهي: عين السوخ بحي السوخ، عين البير بحي دار الشيخ، عين قادوس احسن وعين بوعموش بحي الكركوري وعين الدبة وهناك عيون أخرى مثل عين الجهال وعين سيدي يحيى... وغيرها. وبجسورها التي تربط بعض هذه الفرق. أما السكنات فهي بصفة عامة يغلب عليها البساطة في التخطيط، فأغلب مساكنها تشترك فيما يلي: - الفناء ما هو داخلي الذي يكون غير مسقف حوله مرافق (غرف، دورة المياه...) يتخذ اشكال مختلفة. وما هو خارجي يستعمل كزريبة لمربي الحيوانات، أو ورشة لدبغ الجلود وصبغ الصوف لدى الحرفيين (بلعباس، 2012، صفحة 39).

- مواد البناء استعملت الحجارة في البناء، والقرميد في التسقيف، كما أن معظم المباني فهي متكونة من طابق واحد فقط. كما يوجد ببعضها سقيفة. وكل هذا النسيج العمراني هو بأمس الحاجة إلى تحقیقات أثرية عميقة وإلى صيانة محترفة خاصة أنها تتوفر فيها جميع شروط ومواصفات ميثاق المجلس الدولي للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية (ICOMOS)، الصادر عام (1999 م)، الخاص بصيانة وترقية المباني الريفية المهتدة بخطر الزوال بفعل ما يُعرف بالحدثة (بلعباس، 2012، صفحة 62).

3. حالة النسيج العمراني بقلعة بني راشد

أن مدينة قلعة بني راشد قاومت الزمن وأيادي الناس وحافظت على البعض من مظاهرها العمرانية من الاندثار، لكن أغلب معالمها عرفت تدهورا مسرعا جعلها تنحدر من أعلى قمة الرقي والازدهار والقوة إلى أدنى مراحل الانحطاط بسبب السياسات التي مرسها الاحتلال الفرنسي، الذي همش الكثير من المدن التي كان لها دور كبير في المقاومات الشعبية خاصة أن القلعة كانت ملاذا لكثير من الثورات الشعبية بداية من الأمير عبدالقادر وسيدي لزرق بلحاج وبوزيان القلعي الذي هو ابن مدينة القلعة.

أما حالياً فالتراث المعماري الموجود في قلعة بني راشد أصبح يقتصر على التمجيد في مختلف المناسبات دون تسخير كمصدر اقتصادي ومورد مالي قار، كما أن النمو الديمغرافي لسكان القلعة أصبح يهدد الحالة المادية للأنسجة العمرانية التراثية وأصبح يشكل ضغطاً عليها أمام الطلبات المقدمة لأجل الاستفادة من السكنات أو تقديم الطلبات لأجل ترميم أو بناء السكنات والأکید في حالة قبول الطلب فحتماً سيكون تحديث المباني القديمة استنساخاً للمخططات العمرانية الجاهزة وبعيدة كل البعد عن القيمة التراثية والجمالية للمدينة ودورها التاريخي، ومجرد إطار مادي دون روح، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يتعذر إخراج السكان منها، لأجل ترميمها وصيانتها، لأنها تأوي عدداً كبيراً من السكان، الذين يريدون خدمات حضرية حديثة في ظل انعدام الكثير من المرافق الضرورية الموجودة في المدن المجاورة.

4. القيم التي تتجسد عند ترميم الأنسجة العمرانية لقلعة بني راشد

1-5 القيمة الروحية:

أصبحت القلعة الآن تربط الحاضر المنطقة بماضيها وما يحمله من تراث اللامادي والمادي بقيمته الحسية والجمالية الذي يستوجب عدم المساس به بل المحافظة عليه التي أكد على أهميتها مؤرخو العمارة في القرن التاسع عشر، مثل Camillo Sitte.

2-5 قيمة المعاصرة والاستدامة:

من خلال توصية المؤتمر العام لصون المناطق الاثرية في 1976/11/26 بنيروبي، "...التي ركزت على دور المناطق التاريخية في الحياة المعاصرة وكيفية ربط التراث العمراني بروح العصر ووسائل العيش التي اوجدها التطور البشري وكيفية الحفاظ على الانسجة العمرانية التراثية مع ادخال متطلبات العصرية عليها و توظيفها كمجالات للحياة اليومية للسكان وكأدوات اقتصادية فعالة في اطار ما يسمى بالسياحة الثقافية... (منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، 1976/11/26). ومدينة القلعة هي مؤهلة لهذا الدور ولها كل المكونات وكل أنواع السياحات (السياحة الداخلية، التراثية، الغابية، الرياضية، الترفيهية، التأملية، المغامراتية...)

3-5 القيمة العلمية والتاريخية:

إن ترميم النسيج العمراني لمدينة قلعة بني راشد يساعد على إنجاز دراسة علمية متعمقة واكتشاف حفریات جديدة ومقارنتها مع مدينة (الرابطة) (بلعباس، 2012، صفحة 11) التي كانت تقع بجانب مدينة القلعة، ونفس الشيء مع مدينة مسراتة (مدني شريف، 2005، صفحة 20) والإجابة عن كثير من الاسئلة التي تجيب عن تاريخ المدينة الحقيقي.

5. خاتمة

إن مدينة قلعة بني راشد أصبحت الآن مهددة بزوال معالمها المتبقية، وحتى يمكن إنقاذ ما يجب إنقاذه فيجب رفع التجميد عن عملية إعداد مخطط دائم لحماية وتأمين القطاع المحفوظ لمدينة قلعة بني راشد، و رفع التجميد عن عملية دراسة لإعداد مخطط دائم لحماية و تأمين هذا القطاع والتعجيل في إجراءات إصدار المرسوم التنفيذي المتضمن قرار تصنيف القطاع المحفوظ قلعة بني راشد في الجريدة الرسمية.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. *Bulletin de la societe de géographie et d'archeologie d'oran.* (1902).
2. Dr. SHAW. (1830). *Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc. de cet Etat, traduit de l'anglais par H. MAC CARTHY.* Paris: Editeur Marlin.
3. *Journal Asiatique RECUEIL DE. MÉMOIRES D'EXTRAITS ET DE NOTICES,* Huitième Série Txvi. (1890).
4. TROUSSEL, M. (1927). «*Kalâa des Beni - Rached*», In: *Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, Tome 47.*
5. ابن الصغير. (1985). *أخبار الأئمة الرستميين.* (تحقيق: محمد، ناصر وإبراهيم) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
6. ابن حوقل. (1996). *صورة الارض.* بيروت: منشورات دار الحياة.
7. ابن سعيد المغربي. (1970). *الجغرافيا .* (تحقيق: اسماعيل العربي) بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.

8. أبو عبدالله الإدريسي. (2002). *نزهة المشتاق في اختراق الأفاق*. القاهرة: دار مكتبة الثقافة الدينية.
9. أبو عبيد الله البكري. (د ت). *البلدان*. بيروت: دار الكتب العلمية.
10. أحمد بن عبد الرحمن الراشدي. (2013). *القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط*. (تحقيق: ناصر الدين سعيدوني) الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.
11. البكري. (2003). *المسالك والممالك*، ج2. (تحقيق: جمال، طلبة) بيروت: دار الكتب العلمية.
12. الحميري. (1974). *الروض المعطار في خبر الأقطار*. (تحقيق: احسان، عباس) بيروت: مكتبة بيروت.
13. العالية بلعباس. (2012). *قلعة بني راشد دراسة أثرية، رسالة ماجستير*. جامعة الجزائر.
14. الماوردي. (1981). *تهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك*. (تحقيق الدين هلال، سرحان وحسن الساعاتي) بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
15. المهدي البوعبدلي. (2003). *تاريخ المدن*. (جمع: عبد الرحمن، دويب) الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
16. اليعقوبي. (د ت). *كتاب البلدان*. (تحقيق: محمد، أمين الضناوي) بيروت: دار الكتب العلمية.

17. عبد الرحمان ابن خلدون. (1992). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في الأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 6. لبنان، القاهرة: دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري.
18. عبد الرحمان ابن خلدون. (2000). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
19. عبد القادر مدني شريف. (2005). قلعة بني راشد الجوهرة الخالدة. الجزائر: دار الأديب.
20. محمد بن معمّر. (2017). حفريات في تاريخ قلعة هواره من التأسيس إلى نهاية العصر الوسيط، مجلة المواقف، مج 12، ع 1. جامعة معسكر.
21. مراكشي. (1985). كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. (تحقيق: سعد زغلول، عبد الحميد) دار البيضاء: دار النشر المغربية.
22. مرمول كبرخال. (1984). إفريقيا، ج 2. (ترجمة: محمد حجّي وآخرون) الرباط: لجمعية المغربية للتأليف والنشر، مكتبة المعارف.
23. منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو). (1976/11/26). توصية بشأن المناطق التاريخية ودورها في الحياة المعاصرة، أقرها المؤتمر العام في دورته التاسعة عشر.
24. مؤلف مجهول. (2010). مذكرات خير الدين بربروس. (تحقيق: محمد، دراج) الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع.
25. يحي ابن خلدون. (2011). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني زيان، ج 2. (تحقيق: عبد الحميد، حاجيات) الجزائر: عالم المعرفة.

26. بن سحنون الراشدي. (2013). *الشجر الجمانس فس ابتسام الشجر الوهراني*.
(تحقيق: المهدي، البوعبدلي) الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.

7. الملاحق:

ملحق 01: منظر عام لقلعة بني راشد-تصوير الكاتب-



ملحق 02: صورة داخل قصر الباي -تصوير المؤلف-



ملحق 03: صورة فوقية لمدينة قلعة بني راشد.

